أبعاد الصراع في المجال المغربي
نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث
دراسة مقارنة

د. عبد الرزاق السعيدي

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
مدير مركز الدراسات والأبحاث – تافيلالت
المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه في الآداب تخصص تاريخ
وحدة التكوين والبحث: المغرب في العلاقات الدولية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – فاس ٢٠١٣.

إعداد: عبد الرزاق السعيدي
إشراف: أ.د. ماجدة كريمي

كلمات مفتاحية:

الدولة المغاربية، الدولة السعدية، السلطة العثمانية، الحقبة الوسيطية

مُقدِّمَة

شكل تاريخ المجال المغاربي قديمًا وحديثًا موضوعًا سالت فيه أقلام الدارسين والباحثين. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا التاريخ ما يزال في حاجة للبحث والتنقيب، وذلك وفق محددات معرفية ومنهجية جديدة، ترنو تقويم المعطيات التاريخية بروح من المسؤولية العلمية والاقتراب من الموضوعية، من أجل توضيح بعض جوانب تاريخ هذا المجال على امتداده. بل والأكثر من هذا محاولة توضيحه بعيدًا عن الأبحاث التي اعتمدت البطولة والثيولوجيا (Theology)، بل والخرافة في بعض الأحيان.

وبالمقابل فإننا ننوه بالأعمال الجادة والتي أولت عناية فائقة لجوانب الصراع في تاريخ هذا المجال وأبعادها الجيوسياسية والاقتصادية، وتحديدًا في حقبته الوسيطية والحديثة والتي استوفت أغراضنا العلمية التاريخية، في استحضار الماضي وفهمه بعيدًا عن الاندفاع والتشنج كما ننوه بالأعمال التي استهدفت تحرير دراسة التاريخ الإسلامي عمومًا وتاريخ المجال المغاربي على وجه التحديد من أخطبوط التبعية سواء للماضي أو للآخر، دون رفض مناهج القدامى ومناهج الغربيين على الإطلاق بقدر ما حرصنا على الإفادة من نتائجهما معًا بعد الاستقصاء والمتابعة.

وحين نحاول هنا دراسة تاريخ العلاقات بالمجال المغاربي خلال نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث، في علاقته الوثيقة - قليلاً أو كثيرًا- بالصراعات التي عرفها هذا المجال على جميع المستويات-اقتصادية وسياسية- مذهبية، فإننا لا نعمل على إقحام التاريخ ضمن إطار الجغرافية السياسية، ولا على تطويعه لها بشكل تعسفي، ذلك أن مثل هذا الأمر لا يعدو في اعتقادنا إلا أن يكون عملية هجينة غريبة عن "علم التاريخ" على عكس ذلك، نحن نطمح هنا إلى أن نبحث تاريخ المجال المغاربي من خلال منظار جديد، يؤكد في المقام الأول على تلمس القضايا الرئيسية التي عرقلت من تطوره، نهاية تاريخه الوسيط وبداية عصره الحديث وعلى جميع المستويات.

وفي هذا الإطار تدخل هذه المحاولة التي اخترناها موضوعًا للبحث، ضمن مسعى هادف يرنو إلى مقاربة الصراعات الجيوسياسية الدولية في ضوء المصالح الاقتصادية، والتساؤل حول إمكان التنقيب عليها في تاريخ المجال المغاربي في فترته الوسيطية وبداية فترته الحديثة بالتحديد.

والحاصل أن هذا الموضوع "الصراع في المجال المدروس" ظل في واقع الأمر حتى عهد قريب يدخل في دائرة الحكر على المشتغلين بالأنثروبولوجيا والعلوم السياسية والعلاقات الدولية، وأن ما كان يرد عند بعض المؤرخين في هذا الإطار لم يخرج في مجمله عن دائرة الترف الفكري والإشارات الخجولة في الغالب الأعم. إلا أنه من شأن هذه الدراسات أن تساعد المؤرخ على إعادة ترتيب المعلومات التاريخية والمتواترة بالخطأ أو المغالطة، ومن ثمة فإن هذا البحث

يحاول وضع سياقات علمية جديدة للعديد من المعطيات المتداولة في هذا الحقل خلال الفترة المدروسة.

ولعل التصدي لمثل هذه الإشكالات يتطلب جهدًا كبيرًا لإنجاز المتطلبات العلمية المراد ملامستها، وعليه فإن الأصالة في هذه المعالجة منهجًا ومضمونًا، كانت الدافع الأساسي لاختيار إشكالية البحث هذه الإشكالية المتمثلة أساسًا في تحليل القوة المكانية، بشريًا وجغرافيًا واجتماعيًا، ودورها في رسم أبرز ملامح الصراع بالمجال المغاربي في فترتيه الوسيطية والحديثة. ونحسب أن هذه الدراسة، ستحاول تقديم مساهمة متواضعة في هذا الشأن، تستهدف سبر غور مجالات متنوعة ومختلفة، متبنية منهجًا شموليًا نقديًا يقوم على رصد الظواهر موضوع الدراسة، من خلال ربطها بأبنيتها المؤطرة وأساسياتها الفاعلة.

تبويب الموضوع:

يخيل إلينا، أنه ولبلوغ الرصد الكافي للظواهر السالفة في المجال المغاربي في علاقاته بالمراكز الدولية الكبرى المتصارعة خلال نهاية العصر الوسيط وبداية التاريخ الحديث، وجب علينا العمل على توزيعها على أبواب البحث، درءً للتكرار وبناءً عليه فقد اعتمدنا التقسيم التالي للموضوع. كانت البداية بمدخل تمهيدي، لتوضيح الصعوبات التي تواجه البحث في تاريخ المجال المغاربي، برؤية جديدة كما بينا ذلك، وثلاثة أبواب وفصول ستة، وستة عشر مبحثًا.

المدخل التمهيدي: عرضنا فيه، مفهوم الصراع أو ممارسة العنف في العلاقة بين التاريخ والجغرافية السياسية، وذلك من أجل إدراك أنماط السلوك السياسي والإحاطة منهجيا بوقائعها الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والمذهبية كذلك. إضافة إلى تحليل التفاعل بين المجال الجغرافي، والجماعات البشرية وتفسير عناصر قوتها في ضوء ما تملكه من إمكانيات وقدرات طبيعية وغيرها.

وقد خصصنا الباب الأول، لتوضيح مفهوم المجال المغاربي تأصيلاً وامتدادًا، والوقوف على الخلفية التاريخية لوحدة هذا المجال في فصله الأول، مع الإشارة إلى التجارب السياسية البارزة في بناءه، وذلك من خلال مباحثه الثلاثة والتي تناولت هذا المجال والتغيرات التي وقعت عليه بين الفترة الوسيطية والتاريخ الحديث، والفصل الثاني الذي لامسنا من خلال مباحثه الواقع الاقتصادي للمجال المغاربي، من خلال بعض الأنماط الإنتاجية، ترسيخ اقتصاد الوساطة زيادة على إثارتنا لإشكالية "الحدود" خلال الفترة موضوع الدرس آخذين بعين الاعتبار خصوصية المرحلة وطبيعتها كما تحدثنا عن نموذج المجال المغاربي في التكتل والوحدة والفعالية من خلال "الدولة المغاربية الموحدية".

أما الباب الثاني، فقد خصصناه لدراسة التشكيلات الجيوسياسية الجديدة نهاية العصر الوسيط، من خلال فصله الأول بمبحثيه وكذلك الخريطة المذهبية، مع الإشارة إلى بداية تعمق الصراع على جميع المستويات في هذا المجال مع نهاية التاريخ الوسيط وبداية التاريخ الحديث، وذلك لأهميتهما في بناء التشكيلات السياسية في هذا المجال خلال هذه الحقبة بأبعادها الجغرافية والاجتماعية والسياسية على المستوى الدولي والمحلي.

وفصله الثاني بمباحثه والتي تناولت الخريطة الاجتماعية والاقتصادية كبعد من أبعاد الصراع بالمجال، والتي أدت إلى تراجع الحصيلة كما وكيفا، إضافة إلى خلاصات أساسية.

وتناولنا في الباب الثالث، قراءة في المجال المغاربي خلال العصر الحديث، من خلال الفصل الأول تحت عنوان "المجال المغاربي من الهيمنة والقوة إلى التفكك والتبعية" بمباحثه الأربعة لتفسير التراجع المغاربي بداية التاريخ الحديث، من خلال توضيح الأنماط الاقتصادية الجديدة، والبنيات الاجتماعية المواكبة للتحولات، والإشارة إلى الواقع السياسي الجديد والذي يجسده الصراع العثماني المغربي، ونزاع القوى الكبرى حول احتكار المجال المغاربي خلال القرن السادس عشر الميلادي، وقد أفردنا الفصل الثاني بمبحثيه لمناقشة محاولات النهوض المحدودة في جميع المجالات، والتحولات السياسة الاقتصادية المستجدة على المستوى الجهوي والمحلي.

هذا واعتنى البحث أخيرًا، بالصراعات الجيوسياسية الكبرى والتي كان المجال المغاربي مسرحًا لها، وذلك من خلال عنصر المقارنة بين فترتين زمنيتين مختلفتين والذي اعتبرناه تجليًا وتمظهرًا صادقًا لما جرى في الوضعية العامة لحوض البحر المتوسط مشرقًا ومغربًا. ونظرًا لما لهذه الفترة الزمنية من أهمية في تاريخ المجال، فقد هدفنا من خلالها إلى توضيح الخريطة السياسية للمجال المغاربي، وما رافق ذلك من تحولات كمية وكيفية من خلال مراحل تطورها ونتائجها العامة متسائلين حول أفاق ورهانات العلاقات بهذا المجال.

وفي الختام أبرزنا في عجالة ما أنجزه البحث من نتائج وخلاصات .

خاتمة

فانطلاقًا من هذا العمل المتواضع يتضح لنا أن أبعاد الصراع في المجال المغاربي، هي خلاصة مركبة لواقع العلاقات الدولية مشرقًا ومغربًا. وكان دليلنا على ذلك، دخول المجال المغاربي في حالة من التفكك والتجزيء السياسي فبعضه تحت سلطة عثمانية لا تعرف عن المجال إلا كونه يشرف على إحدى شرايين التجارة الدولية، وبعضه الأخر) المغرب الأقصى (تحت سلطة الدولة السعدية محاصرة من كل جوانبها. ناهيك عن التراكم الاقتصادي الذي لم يتحقق في أزهى فترات تجارة العبور اعتمادًا على -اقتصاد الوساطة- خلال الفترة الوسيطية، والذي بدا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال تحقيقه خلال بداية التاريخ الحديث، نظرًا لتغير كل المعطيات كمًا وكيفًا.

فقد تأكد من خلال هذه الدراسة، أن عدم إقلاع هذا المجال ليصبح فاعلاً أساسيًا في الأحداث الدولية وخاصةً بداية العصر الحديث، وانغماسه في مسلسل من الصراعات والنزاعات على أكثر من صعيد، يرجع بالأساس إلى عاملين اثنين:

- النمط الاقتصادي المتبع والذي كانت له مجموعة من الإيجابيات، ولكنه غير كفيل بتحقيق التراكم المادي الذي يحدث الانتقال والتطور.
- أن جلّ القوى التي حكمت المجال المغاربي، سواء خلال الحقبة الوسيطية أو الحديثة، لم تساعده على إحقاق بنيات اقتصادية منتجة وكيانات سياسية مستقلة، وتركيبة اجتماعية منسجمة (الطبقة البورجوازية)، بقدر ما استهدفت المجال وفق مصالحها الاقتصادية التي تتبنى الاحتكار، بل وأدخلته في صراعات لا حد لها.

كلها أفكار وتساؤلات تحتاج إلى مزيد من الجهد والتنقيب، لإماطة اللثام عن جوانب أخرى من التأثيرات الخارجية في الصراعات والنزاعات الدائرة اليوم ومستقبلاً بالمجال المغاربي، ويكون للأعمال التاريخية الجادة الدور الهام في ذلك. وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهتنا، وخاصةً على المستوى المعلومات والمنهجية وكذلك المصطلحات والمفاهيم، فقد تم تذليلها بتوجيهات الأستاذة الدكتورة ماجدة كريمي، والتي راعت هذا البحث من بدايته إلى نهايته فلها الشكر الجزيل، وإلى كل الأساتذة الذين ساهموا من قريب أو بعيد في إخراج هذه المحاولة إلى الوجود.